ثانياً ان العلم لا يزال يفتح ابواب الرزق التي في الطبيعة ويرشد الانسان الى مصادره المحجوبة ليستخرجه

ثالثاً ان المدنية اذا اطّردت في سيرها العادي فلا بد ان تقتضي انتظامات بحيث تتوزع الاعمال والارزاق حسب الأهلية والاستحقاق الامر الذي يزيل الشقاء ويوسع دوائر الارزاق ويعم التوازن بحيث تصير البسيطة كلها اوقيانوساً للارزاق على مستوى واحد

نقولا الحداد

الدماغ والتعليم

اذا كان الانسان تاج الاحياء الارضية هو المكلّف باعمال الحياة جليلها وحقيرها المأمون عن صلاحها وفسادها فلا غرو اذا كان جهازهُ العصبي عموماً ودماغهُ خصوصاً اشرف ما فيهِ من الآلات واهمّ ما ينبغي صرف العناية الى وقايتهِ من الآفات وتقوية قواهُ المختلفة الوظائف منذ يوضع في المهد الى ساعة ان يُوارى في اللحد

هذه الخيوطات الدقيقة المنتشرة في الهيكل الانساني التي قد لا تزن ذرّيةً من المادّة البدنيّة اذا اعتُبر ما ينشأ عنها من كل باهر مادي وساحر معنوي في مشهد هذا الوجود تفوق كلّ مثمّن موجود على الاطلاق

والعجب كل العجب في شأن هذا الكنز الالهي المقدّس الآثار ان صاحبهُ العاقل مع علمهِ بأنّهُ مبعث سعادتهِ وشقائهِ ومجلبةُ دائهِ ودوائهِ بل محيي عزّهِ وذلّهِ لا يزال على الجملة قليل الاكتراث لاستخدام قواهُ والانتفاع بجدواهُ بل كثيراً ما يحملُ جهلهُ على توديعهِ حتى يوردهُ موارد التلف إمّا باهمالٍ وضعفٍ او إعمالٍ بسرف

لقدّم لنا كلامٌ تمهيديٌّ في عنوان هذه المقالة في مقتطف يوليو وقبل استيفاء ما اردناهُ من مطالبها رأينا ان ننقل اليوم شيئاً مهمّاً وقفنا عليهِ لارباب النظر والتفكير في خطارة شأن الدماغ ومنزلتهِ من مقام الجنس برمّتهِ والاجتماع الانساني على اطلاقهِ استلفاتاً لانظار القراء الكرام من بادئ الامر حتى لا يسبق لواهم ان الموضوع هو في جملة الابحاث الفلسفيّة والفنون النظرية التي لا تلذّ غير اهل الاختصاص او تروع لموضوعات الجلّة يقصد بهِ ارشاد المطالعين

كلاّ فالبحث اصبح اليوم في ما رأينا غايةً من غايات علماء التهذيب العليا على ما يرثّ بنا من تقرير حقائقهِ . فما جاء بمفكّر كبير في علاقة الدماغ بمجموع الامة

« لقد اتضح من تتابع جميع الامم على السباق نحو كيل الفوز لا ينالهُ منها الاَّ الامة التي تركت بها ادمغة افرادها الى اقصى ما يستطاع من حدود الارتقاء ولا حرج علينا اذا قلنا على سبيل النبوءة ان في المستقبل القريب لا تعد مدرسة مدرسة حقيقيةً ولا الامة آخذةً في معارج الارتقاء الفكري الاَّ اذا كان فيها العناية العظمى مبذولةً لدرس العضو الذي على اجراء وظائفهِ يتوقف تقدم النوع البشري في سبيل المدنية والحضارة والعمران »

« ولا مبالغة اذا صرحنا بان مقياس مدنيتنا اليوم هو مقدار اجتهادنا في استجلاء حقائق الدماغ ووظائفهِ على قصد ترقية القوة المفكرة في مجموع الجنس الى حدها الاعظم »

ثم قال هذا المفكر الحر حتى في شأن بعض الجامعات الاميركانية وقلة عنايتها بامر الدماغ ما نصهُ

« لقد نُقش على ابواب بعض المدارس الاميركية برسم النسر رمزاً الى روح القوة المهاجمة ولكنَّا نرى — مع الاسف — انهُ نظراً لتقصيرنا في هذا الواجب يحسن بنا ان نستبدل هذا الرسم برسم طائر آخر يُضعف عيليه في وجه اعدائهِ ويخفي رأسهُ في رمال الصحراء — رمزاً الى الجبن والعجز عن لقاء الاعداء »

واذا كان الدماغ هو القوة الوحيدة التي ينبغي ان تستخدمها في قتال الجهل فمن المعيب على المدارس ان تبقى على حال هذا الاهمال لدرس عُدَّة هذا القتال »

واذا تمهَّد كل ذلك تقدَّم الى المُراد من مقصد البحث فنقول تلخيصاً

ان في الدماغ قوى عقلية مختلفة بيانها في الفلسفة العقلية . وجملٌ ما يذكر منها الآن على سبيل التمثيل قوة الذكر والائتلاف وقوة الموازنة المعروفة بالحاكمة وقوة التمحيص والمقابلة والامتحان وهي التي تأبى التسليم بالمنقولات والجمود على التقليد . وقوة توجيه الفكر بصفة على نقطةٍ واحدةٍ من الموضوعات . وقوة الفعال وجداني وهي التي تخضع لسلطان الارادة

وقد اثبت العلم ان لكلٍّ من هذه القوى العقلية مقراً او اثراً وظيفة مخصوصة من الجهاز العصبي وانهُ لا يتأتى تعيين درجاتها على وجه اليقين في كل شخص الاَّ بفحص احوالهِ الدماغية فحصاً عليًّا لا يستطيعهُ غير اهلهِ ممن احكموا درس الدماغ وطالت تجاربهم فيهِ كما هي الحال في فحص المعاتيه على اختلاف فصائلهم وتفويض شؤون تدبيرهم العلاجي لارباب الاختصاص

وقد ضلَّ من ظنوا من قصار النظر انهُ لا حاجة لفحص اهل الاختصاص في مسائل الاختلال الدماغي الظاهر الآثار في مسالك الناس العادية وان لا مقتضى لتولي شؤون التهذيب

الفكري وترقيته او اخذ المطلوب ان يمتازوا بمعرفة خاصة لبنية الدماغ ووظائفه المتفرعة . ولكن سيظهر لك في كل حكم من احكام هذه المقالة فساد هذا الزعم وضرورة الاضطلاع بالقدر الكافي من هذا العلم

والظاهر ان علماء الدماغ لم تتح لزمان جهادهم وكفاحهم لاهل الغواية من ارباب السلطة الفلسفية والسياسية في ضرورة هذا البحث والاقتطاع اليه والاخذ بايدي ارباب اعزازاً لشأنه وتمهيداً لسبيله

ومع انهُ اصبح من المشهور حتى بين صغار الطلاب ان جميع الاحياء الحيوانية من ادناها الى ارقاها في نتائج وظائف مخصوصة في الجهاز العصبي لا يزال بعض امرى الجهل حتى من اهل هذا العصر ينكرون هذه الحقيقة انكاراً يضحك الثكلى

على ان شمول الوظائف الدماغية لكافة انواع الحيوان ظاهرٌ من ابسط اعمال الذاكرة وبادئ الاختيار في ادنى هذه الانواع . وهناك سلسلةٌ لا تنقطع من نتائج القوى الدماغية تبتدئ من حركات الجنين وتنتهي في اعمال البالغين . غير ان اهل البحث لم يتهيأ لهم تقصي الاعمال الدماغية وآثارها الاَّ تدريجاً . فكان اول ما كشف لهم من هاتيك الاسرار الحقائق الناتجة عن ظهور الادواء السرطانية والخراجات المسبَّبة عن آفات الفالج والصدمات والدمامل المعيَّنة المواضع . ولكن ما كان من الاحوال الدماغية غير ظاهر الآثار الوضعية بقيت اسرارهُ محجوبة على اخفاء ما في الدماغ من لطف البنية ودقة التركيب وسرعة تأثره باقل مؤثر حتى يتصل اذاهُ بحال صاحبهِ عموماً . وجملة ما يُقال في نتائج ابحاث الدماغ انها قد اجلت عن تمام المطابقة بينها وبين نتائج فسيولوجيا المقابلة الدماغية

ومما ظهر من ذلك ان اعمال المجانين لا تختلف في صفاتها عن اعمال بعض الاذكياء (الشاذَّة) في امورهم العاديَّة وان في اعمال الاولاد وبعض الشبان الغريبة الاطوار جراثيم لانواع من الجنون — وما احسن مورد القول العربي هنا — الجنون فنون

وممن يذكرهم العلماء تمثيلاً على فنون هذا الجنون اصحاب الغلو والتعلُّم الشديد في امورهم الدينية ومجاهم السياسية وغريب المذاهب الفلسفية واهل الاحزاب المتطرفة وسائر من يلحق بهذه الطبقات الخارجة عن حدود الاعتدال

اما تقدُّم علم البيكولوجيا هذا فهو تابع بدأً لتقدُّم العلم الطبيعي حذو القذَّة بالقذَّة . وما كان تأخر هذين النطين الاَّ من اهمال ما كان يعدهُ بعضهم من زهيدات الامور مما عبَّر عنهُ الفيلسوف بأكون « بشاهدة الطبيعة بن عيٍّ » . وهو الذي حدا بكانت ان يقول

في آخر امره ان « ترقي الانسان في عقله وآدابه منوط بعوامل النمو الطبيعي »

وخلاصة القول في اهمية درس الدماغ والجهاز العصبي هي انهُ الطريقة الوحيدة الفعّالة لتأسيس اساليب التعليم العقلي وان ذلك لا يتوقف على تسهيل اسباب التهذيب وتعميمه بل على تطبيق الاسلوب على حالة الفرد الدماغية . وان الناس اخذوا يتنبّهون الى ان ما يسمّى « بالتهذيب العالي » الخالي عن ناموس هذا التطبيق لا يحصر ضررهُ في تقصيره عن دفع الآلام البشرية بل ربما اصبح علةً وبيلةً في زيادة انحطاط النوع الانساني عقليًّا وبدنيًّا وان احياء الدماغ والاخلاق في موازنة قواهُ قد تعرّضا لمرض الانحطاط ادبيّ ذي شأن حتى قال بعضهم « ان اسعد ايام البشرية يومٌ فيهِ يوقن الناس ان الآداب الصحيحة لا تتوقف على طاعة الانسان العمياء لاقوال الفلاسفة وآباء الارواح قدر توقفها على اقوال الطبيب »

ولذلك اشار بعض الثقات بوجوب ادخال المبحث العقلي الى كبار المدارس لاعطاء الارشادات الوافية للمعلمين والطلبة في شأن تربية قوى الدماغ والجهاز العصبي وبيان حدّ الاقتدار الشخصي فيهما على ما يعيّنهُ ضرب الاختصاص . وهكذا الى ان يتأتى تدريجيًّا اعداد المعلمين وتربيتهم على ذلك الفحص بحيث يمكنهم الحكم الصحيح في حال كل طالب وتطبيق الدروس على مقتضاهُ

قالوا ومن غرائب الغفلة في هذا الشأن الخطير ان الناس يوم يرومون الارتباط بشركة ضمان الحياة يهرعون الى استشارة الطبيب القانوني في احوال الاعضاء الرئيسة كالقلب والكبد والرئتين ولكنهم يُغفلون امر الدماغ وهو الخطب الاعظم وقد لا يقلُّ خطورة شأن عن البواقي فلا يمرُّ لهم بال الاَّ يوم تضطرهم الحال الخطيرة بظهور داء من الادواء

وكذا قل في المدارس التي تمنع ضعاف القلب والرئتين مثلاً من الالعاب الرياضية ولا تبيح فعليًّا بمنع ذوي الضعف العصبي من تحمّل اجهاد الدماغ اكرامًا للتعليم العالي . بل لا تفتأ تحرّض سواد الطلاب على دخول غمار ذلك الجهاد بلا تفريق حتى اذا قصّر الضعيف الدماغ المكين اصبح عرضةً لهزء الناس وشفقة المشفقين — وهذا اذا لم يأتِ منكرًا لاختلال عقلي او لم ينتهِ امرهُ بالانتحار . ومع بلوغ هذا الاغفال هاتيك الغاية من الوبال فقد لا يذكر ارباب تعليم بسوء بل يندفع الجمهور على فضيحة المقصّر الخاسر الحدّ بكل لسان وانزال العقاب الادبي بهِ لدى الجمهور فيغرم كنائسيًّا او يمنع دفنهُ في المقابر العمومية تحقيرًا !

هذا ملخّص ما اردناهُ من اقوال محدثي المفكرين في وجوب درس الدماغ واعتماد حذقهِ في التدريس . ولما كان كثيرٌ من طرق المدارس الشائعة الى اليوم في سر التدريس العقلي

زيادة الاقبال للطلاب ظاهرة الآثار في مصلحة البلاد على العموم لم نرَ بدًّا من بيان خلاصة ما انتهى اليه اطلاعنا من ابحاث الباحثين في هذا الباب . ومرجع الكلام فيه اصلان كبيران ينشأ عنهما بعض الفروع . والاصلان هما حشو الدماغ بكثرة الدروس وطريقة التقليد

(١) لا يزال العدد الاوفر من المدارس يعتمد التبحُّر والشهرة سبباً في اعلاء نباس الطلب وتوسيع نوافذ الدروس من اغراق اذهان الطلاب في بحر زاخر من المطالب كأن المدرسة حانوت تاجر لا يرى بأساً لتقدُّم تجارته ورخائه الاَّ بالاكثار من انواع السلع وشحن مشجوره منها وتزيين جوانبه باشكالها حتى تأخذ بالابصار والافكار

وما فتئ شيطان الغرور يزيِّن لهؤلاء القوادّ ان الحراز قصب السبق في الدرس والتدريس انما يقوم بشحن الدماغ بالمعلومات الكثيرة غافلين او متغافلين عن غاية الغايات من التعليم . الا انها تقوية العقل وترويضه لا غصته وتمزيقه

وامر اقحام الدماغ هذا اصبح اذاهُ من البدائه المشهورة عند الجاهل والعاقل حتى بحَّت الاصوات وجفيت الاقلام في نعي وباليه وحتى بات قولهم (دسبيبيا الدماغ) من الامثال السائرة ولكن الظاهر ان حبَّ المنافسة المدرسيَّة آخذٌ من اشدة تجار المدارس ما يأخذهُ عشق الازياء من قلوب ذوات الغرور . ولو كان هذا الضرر مقصوراً على تقصير الطالب واضاعة الوقت والمال لهان الخطب ولكنهُ يتعدى الى كراهة الطالب للدرس بتاتاً لما في ذلك الارغام من اشغال العقل عن الاستيعاب وفقد لذَّة الروية والادراك وهلاك قوة الاستقلال الفكرية في الابتداع والاستنباط . وكثيراً ما يعاف الدارس الدرس والمدارس ويهجرها هجرًا وبيلاً غاية الضرر

ومعلوم ان ارتقاء اي البلاد في شؤون الحضارة والعمران منوطٌ كلهُ بترقية قوة التفكير المستقل وتنمية ملكة الابداع والاختراع وان ذلك كلهُ لا يتمُّ الاَّ باتساع مجال النظر وحصره في نقاط معيَّنة من الابحاث هي مهوى افئدة الطلاب ومرتع لذة العقل . ومن ذكر ان بلوغ الرقيِّ العلميِّ والعمرانيِّ في مختلف مناحيه انما يتأتى بنبوغ النابغين وان هذا النبوغ ثمرة تربية القوة الدماغية على حبِّ الفكر واطالة التأمُّل — من ذكر ذلك — يفقهُ ما يجرُّهُ اغفال هذه التقوية الفكرية في المدارس على البلاد من وخامة العاقبة وانحطاط الشأن القوميِّ على الاجمال

قل لي بعيشك ايها الذكيُّ كيف يتسنَّى لدماغ الطالب المسكين اقتباس مثل هذا المجال وفروض الدروس اليومية تنصبُّ عليه انصباب ماء السحاب وتتوارد عليه الهيال الهيال حتى

لا يكاد نظره يمرُّ على بحث حتى يدلهمُّ بحث ! وهل يُرجَّى من امثال هذه الاذهان المشهوكة ضنى ونصبٌ فكرٍ يعكف على موضوع واحد حتى يتقنهُ تفكيراً وتقليباً على مثالب نيوتون الكبير او ينفق عليهِ الايام والاعوام ليجمع اطرافهُ ويحيط بجزئياتهِ كما فعل داروين ؟

(٢) من اوضح دلائل التقليد الفاضح ان يعتاد طلاَّب المدارس التسليم الاعمى واتباع كل ناهق في اسواق المذاهب العلمية والآراء الفلسفية فيتوهمون ان كل رأي خطير ذكرهُ استاذ في حلقة التدريس او اشير اليهِ في رسالة او كتاب هو المقرر الثابت بالاجماع والدليل كأن ليس لهم فكر ذاتي وكأن قول كل ذي مقام اذا ذاع امرٌ مُطاع وزيٌّ حريٌّ بالاتباع . وما اشدَّ مصارع العقول وضحايا الحقائق التي قامت عليها اركان الاجتماع البشري بفضل هذا التقليد الشريع الذي انما نبت في مقاعد التدريس فمت جراثيمهُ مع الزمان وانتشرت سمومهُ في كل مكان

وما احسن ما جاء في جزء ايار من مقتطف هذا العام للنظامي الفاضل الدكتور امين ابي خاطر في تعليل احلام كثير من العلماء واوهامهم من ان كثيراً من الاوهام العصبية تتولى هؤلاء العلماء في احكامهم الباطلة الصبيانية وما هي الاَّ بنات الاوهام واضغاث احلام

فالحريُّ يا رباب التهذيب العقلي ان يتَّقوا الله في تنشئة العقول على الروية والتمحيص ولا يحملوا طالبًا على التسليم بمذهب علميٍّ قبل ان يقوى على ادراكهِ والاقتناع بدليلهِ ان كان لهُ دليل والاَّ اتقوا منهُ قوة الحكم على التشريح وحينئذٍ فإما ان يرعى مع الفسل او ينقاد كالانعام

روى بعضهم عن استاذ مفكر حكيم ان جماعة من الطلبة رغبوا اليهِ ان يلقي عليهم دروساً في فلسفة التاريخ . فلما كان «درس» من احوالهم الفكرية عن اختبار ان تلك الرغبة كانت ناشئة عن محض التأنق والتباهي بالاكثار من دروب الدروس وانهم ليسوا على تمام الاستعداد لهضم تلك الحقائق الدسمة المعاني اجابهم بما لفظهُ «ايها الخواجات الشبان اني انصح العدد الاوفر منكم ان لا يحضروا درسي في هذا الموضوع الآن بل ارغب اليكم ان تستبدلوهُ بما يشغل نظركم المحسوس وتعودوهُ الملاحظة والمقابلة والتمييز بين صفات المرئيات . تعلموا بدرس الرسم والمواد الطبيعية واعتادوا الامعان فيها والحكم الذاتي في احوالها وحين تقوى فيكم ملكة النظر والرأي الشخصي في خصائص الموضوعات وعلاقتها تروني اسرعت في ان التي اقوالي الخاصة في مسائل التاريخ العليا » . ولعلَّ كل استاذ ضريب الاختبار رأى كثيرين من امثال هؤلاء الطلبة المتأنقين الاغرار

وله بعد علاقة كبيرة في سبيل تعويد الطلبة على التفكير الذاتي والعمل الدماغي في اثناء التدريس الخطأ الفاشي من تولي الاستاذ تقرير الدرس بحملته دون ان يفسح مجالاً لطلبته للتلقي والاحاطة والاستيعاب فضلاً عن التأمل والتفكير

ان هذه المسألة تدخل في باب اسلوب التدريس الخاص الا انها لما لها من طريقة ذميمة وخطة منكرة افقر اضرارها سلب الاستقلال الذكري وافناء القوة المختصة بالتفكير على الاجمال لذا رأيت مندوحة عن الاشارة اليها سيئ عرض هذا البحث والتنبيه عليها لاهل الابصار . وقد ثبت لاهل الخبرة من المدرسين فيما بعد هذه الطريقة وصحة خطة التدريس الحقيقي من جعل الدرس موضوع مذاكرة بين المدرس والدارس على سبيل السؤال والجواب والاخذ والرد بحيث يكون الطالب مشاركاً للاستاذ في تفهم المسائل واستجلائها وبسطها في حلقة من سلسلة النظام الفكري الى ان يصقع التلميذ والدرس قيد خاطره وطوع بنانه

اما التدريس الخطابي معوّل بعض الجامدات المكتبي فهو من شأن من قطعوا المرحلة الاولى من تربية القوى وربحت نفوسهم الملكات العقلية واصبح شاغلهم في تحصيل الفنون والمهن الصناعية مجرّد الحرص على الذخر والجمع وتوفير الوقت . ولذلك قد اصاب صاحب الملال الاخر في محضه النصح لنظار الجامعة المصرية الحديثة النشأة بان يعتمدوا في التعليم خطة التدريس بمعناها الوضعي الآنفة الذكر التي اعتمدتها المدرسة الكلية السورية منذ نشأتها الى اليوم وظهرت مزيتها على الطريقة الخطابية في شؤون خريجيها ظهوراً جلياً لكل ذي عينين ويحبذا هنا قول بعضهم في طريقة التدريس الخطابي وتشبيهه التعلم بالخطاب « بين يروم تمرين عضلاته بمجرّد مشاهدة اللاعبين في ساحات الالعاب »

ومما ينبغي ان يُساق هنا من اوهام بعض المدرسين والدارسين الخلط بين المكابرة العنادية وبين قوة الاستقلال والبحث الحر . فلكم سبق لاهل هذه الطبقة الجاهلة ان مجرّد اطلاق العنان لحرية التفكير والوقوف موقف المشاغبة والانسحاب على اذيال كبار المفكرين تقليداً واعتباطاً هو الدليل على قوة الاستنباط والابتداع وقد فاتهم ان مثل هذا الايهام تغرير بالنفس لا بد ان ينتهي بالقوة الدماغية الى المكابرة الوبيلة المآل حتى ليصر عليها ادراك البائس وتأبى تسليم بواضح الحقائق ؟ وهي مهلكة حقاً ان يجرمنها مكابر ولو حشر نفسه من اهل العلم بين الاكابر . وليس منشأ هذا الضرر الفكري الا قوم من ملوك المدارس الذين يزيّنون لطلابهم ان التقدم في اطلاقهم مما لق لقيود العقول . ولو عقلوا

أقيدوهم قبل هذا الاطلاق بقيود عقلية من عمر النظر والبحث والاستدلال وراضوه في هذا الميدان تدريجاً وشيئاً فشيئاً الى ان تنضج فيهم ملكة النظر ويعتادوا الانشراح لكل واضح ولو كان في جانب العدو الألد والخصم الاشد

ومن مهلكات قوة الاستقلال الفكري تضييق دائرة النظر العقلي بحصرها في حدود المألوف من الاشخاص والمعلومات حتى يتقيد الفكر بأغلال من العصبية المكانية والقومية تتعامى عن كل اصلاح . ولا نريد بذلك الآن الالتفات الى العواطف المذهبية او الجنسية فهي اشهر من ان تحتاج الى تشهير وقد صار الكلام فيها من قبيل تحصيل الحاصل بعد افتضاح امرها لدى الكبير والصغير . والظاهر انهُ لا يتكفل بمحق شوكة هذا التعصب الا الزمان وانتشار انوار التهذيب الصحيح . وانما نريد هنا التعصب المدرسي الناشئ عن اغلاق الطالب بمدرسته التي نشأ فيها اغلاقاً يشبهُ ان يكون استعباداً يثبت لها العصمة والاعتلاء على كل ما سواها تحت قبة الفلك في امور العلم والتعليم

وقد افاض ارباب البحث في هذا الفرع من العصبية المدرسية ناعين على فريق من ارباب المدارس الجامعة والكلية وغيرها ما يلحق بالناشئة من ضيق دائرة الفكر وفناء قوة الاستقلال العقلي . وخلاصة ذلك ان الطالب المتعصب لمدرسته قد يماثل المتعصب لخطته الدينية بحيث يرى اساتذتها ودروسها ونظامها مقدسة منزهة عن النقص حتى لقد يحرم الالتفات الى غيرها ولو على سبيل الاطلاع والمقابلة

وكان من حكم العقلاء في نتائج هذا الخطر الخزبي الشائن انهُ من اعظم الاضرار التي تهدد الرقي العقلي في ناشئة الطلاب مناط آمال الاستقبال حتى يعم الاضطراب الفكري جميع البلاد . واحسن ما يشير به هؤلاء المفكرون الاحرار في شأن هذه المدارس ان تخلو حذو اخواتها في كثير من الممالك في حثهم على السياحة والتجوال على المدارس المختلفة في اقاليم مدرسيها والتظمتها وروائحها وتخالطة علمائها بغية انشاح مجال الحرية الفكرية واقتباس الصالح الاجنبي واطراح الفاسد الداخلي كما هو شأن كل اختلاط حكيم يشتد الحقيقة فيأخذها حيث يجدها

ولذلك اصبح من عادات بعض المدارس العليا النزيهة القصد ان ترسل على نفقتها الممتازين من متخرجيها الى مدرسة اجنبية زمناً غير يسير طلباً للاستكشاف والوقوف على المستحدث من الآراء الخلية وترسيعاً لنطاق الدروس الخاصة

فاذا كان مناط التقدم والارتقاء في جميع شؤون البلاد المعاشية كالتجارة والصناعة

والزراعة هو مبدأ المنافسة المبني على حب الاستطلاع وان كانت مدعاة التأخر والانحطاط في الارض الموجود القريب والموروث الخاص من طريق الاغترار والجمود لا احرى صناعة التربية الفكرية وهي منشأ كل تقدم وفلاح في الارض بان تجري على هذا المبدإ الشريف

قلنا ومن اهم النظر في حال التعليم الشرقي من هذا الوجه تجلّت لنا نتائج هذه الحقيقة الرائعة ظهور الغبي فانهُ لم ينشأ ذلك الجمود العقلي مع التعصب الفكري حتى بين اهل الاخلاص الاَّ من هذا التضييق العقلي الناشئ على مقاعد التعليم حتى لا يرى الطالب الشرقي على اختلاف الملل والنحل لغير حزبه فضلاً ومزية فجافت القلوب وتخاذلت الافكار وتشاكست الطباع حتى ادّى تنصل تلك التربية الفكرية الى ما يسيل الدموع ويذيب الضلوع ويبعث على الشرق ما تراهُ من فوادح البلاء

ولا يردُّ على هذا بدخول علم المنطق في برنامج كل مدرسة عالية وهو في المشهور معيار العلوم ومحكُّ النظر وميزان العقول وانهُ حيث يكون هذا العلم فهناك الثقة بالعلين والتعلمين فان مجرَّد تدريس علم المنطق صناعيًّا وبر صحبهُ علم النظر وآداب البحث قد لا يجدي المدارس مثقال ذرَّة مما نحن فيهِ . ذلك ان غالب الشائع في تعليمهِ استظهار قواعد القياس باشكالها وضروبها واستلتها كما لو اكتفيت من تعليم الفنون الرياضية باستظهار القواعد واعرضت عن انشاء الملكة بادمان التمرين على حلّ المسائل والمشاكل . اي ان الجاري في تدريس المنطق انما هو الطريقة النظرية قصد التبحر باعلاء البرنامج والاخذ بالظاهر المفروض حتى اذا بادهتْ طالبًا بحكم عقلي صحيح المغالطة والسفسطة لم يجد جوابًا في تحليل مقدماته وعرضها على قواعد النقض والرد . فالتقليد لا يزال رهن التقليد حتى في علم الاستدلال . ودليلهُ ما يقع لعلمائك على مرّ الساعات من مخاطبات المتناظرين المنشورة في كثير من الصحف والرسائل والمجلدات مما يضحك ويبكي معًا . واكثر ما تجد ذلك بين من درسوا المنطق ذاك الدرس العقيم ربانوا فيهِ بها ليل معاتبهُ

وما احسن طريقة بعض الكليات وما تحتها في تعيين اوقات خاصة لاجراء المحاورات العلنية على اختلاف انحائها بين الطلاب بحيث يتسع مجال النظر في البحث اخذاً ورداً مما احمدنا نتائجهُ المنشورة على صفحات مجلدات المقتطف شيخ المجلات منذ نشأتهِ الى اليوم

الاَّ ان ارباب الخبرة قد اشترطوا في هذه المباحثات الاَّ تكون اثنة ساعتها اي قبل ان يمل الذهن لاستيعاب الموضوع والاحاطة باطرافهِ وإعمال النظر فيهِ . والاَّ فان مجرَّد

انبعاث اللسان في الكلام قد يؤدي الى الخبط والهذيان فتفوت الغاية المقصودة بالدنت من التفكير والتمحيص وان من قابل بين ثمار التدريب الفكري في سابيب المتخرجين على الطريقة الحديثة وبين نتائج اهل الطريقة البليدة مع ضخامة القاهير وضخامة موتهم يرى الفرق كفلق الصبح

ولا يرى المتبصر غلةً هذه الادواء سوى نقص القوين على فن البحث والنظر الفكري بحيث يحول بين الطبع دون قبول من المصطلحات النفية مما يعمد اليه ويزيد التشويش

وقد اشار بعضهم قبل انقطاع القوى العقلية لاعمالها المختلفة من الحصر والتفكير والملاحظة والاستنتاج بوجوب تربية المشاعر الظاهرة كحاسة النظر والسمع وغيرهما على الملاحظة والتدقيق في التمييز والتفريق بين الاشياء الطبيعية بدرسها درساً قانونياً اي ما سار فيه النظام والترتيب والتبويب في المراتب والصنوف والتباينات

وقد خصوا في ذلك درس فنون الرسم والنقش تقويةً لملكات الدقة المتناهية في الملاحظة والمقابلة بالالوان والاشكال مما برز فيه التقدم على المحدثين . قال فيهم احد الاعلام « ان عظمة اسلافنا العظام انما تأتت لهم بتقوية المشاعر من حدة النظر والتدقيق واحكام الملاحظة ودقة التفريق » . ومن ذلك استدلوا على نقص التربية العقلية الحديثة من قلة ما يُعرَّض للطلاب من موضوعات النظر والسمع قلة تورثهم السأم والتبرُّم حتى يصح ان يقال فيهم « لهم عيون ولا ينظرون وآذان ولا يسمعون »

هذا ما اخترنا اقتطافهُ من ثمار اهل التحقيق في هذا البحث الدقيق . ولم يبقَ منهُ الا الاشارة الى علاقة الارادة والاخلاق بالدماغ . ولما كان اتباع الكلام في هذا الباب مما لا يسعهُ المقام نجتزئ بان نقول ان ارباب التشريح الدماغي وعلم النفس اجمعوا بعد تكرار البحث والامتحان ان اعمال الارادة انما هي مظاهر لقوى الدماغ . واما في امر الاخلاق فقالوا ان المحل فيها الظهر والشهر وحسبهم من ذلك ما هو معلوم لدى الخاص والعام . وهو ان سرور المرء وانقباض صدره يبعان لحالته الدماغية فاذا كانت هذه في حال النشاط والانتعاش طربت لهُ الدنيا ورقص لها واذا ما اعترى ذهنهُ وهن او انحطاط اصبح النور في عينيهِ ظلاماً والقلب افراحهُ اتراحاً . اما السجايا النفسية مناط المسؤولية الادبية وما هو حكمها في هذا الباب فلم نرَ لاهل بحثنا تعرضاً لها ولعلها مستقلة عن مباحث الدماغ لدخولها في الفلسفة الادبية والدينية

متري قندلفت